

صورة الأرواحية عند مجتمع السودان الغربي خلال العصر الوسيط Society of western Sudan before Islam: historical study

د. عبدالله عيسى

باحث في الدراسات الإفريقية - جامعة حلب

iissa34@yahoo.com

تاريخ الأرسال: 2020-02-07 تاريخ القبول: 2020-05-08 تاريخ النشر: 2020-05-31

- الملخص:

يعالج هذا البحث موضوعاً تاريخياً مهماً، وهو بعنوان: (صورة الأرواحية عند مجتمع السودان الغربي خلال العصر الوسيط)، وقد انبنى من مقدمة وثلاثة مباحث و خاتمة؛ كان الأول منها في التعريف بمفهوم بلاد السودان الغربي وإطاره الجغرافي، أما الثاني - والذي يعتبر جوهر البحث - فخصص لدراسة عناصر الديانة الأرواحية،¹ وفي المبحث الأخير (الثالث)، حاولنا تسليط الضوء على تنظيم المجتمع في ظل الديانة الأرواحية. ثم تلا ذلك الخاتمة التي تشمل على النتائج والتوصيات، وخلص البحث إلى أنّ الإنسان الإفريقي قبل اعتناقه للإسلام كان يعبد أشكال مختلفة من العبادات والآلهة، شأنه في ذلك شأن سائر المجتمعات الأخرى، ولكن مع بزوغ فجر الإسلام أخذت كثير من هذه المظاهر تختفي تدريجياً. وتبين لنا أيضاً، أنّ علاقة الأرواحية بمجتمع السودان الغربي هي علاقة وطيدة، فتحليل عناصر هذه الديانة يمكننا من فهم أفضل للبنيات الذهنية والفكرية للمجتمع المدروس، والميكانيزمات المتحركة في مجالات الحياة اليومية.

- **الكلمات المفتاحية:** الأرواحية، الإسلام، إفريقيا، السودان الغربي، المجتمع.

- Abstract;

This study deals with an important historical theme. It is entitled: (Animism in the society of western Sudan in the middle Ages). This study consists of three parts. The first part aims to clarify the concept of country of Sudan and its geographical surroundings. The second part is devoted to the analysis of aspects of the Animism. In the third part, we try to focus on the organization of society in the light of the Animist religion.

In conclusion, we summarized the search results as well as the various recommendations which are proposed by us. Indeed, this study

showed that the African man has worshiped deities quite variable. But with the emergence of Islam, most of these spiritual aspects have gradually disappeared. The study also showed that there was a strong relationship between the western Sudanese society and Animism. This relationship has allowed to a better understanding of the intellectual and mental structure of the society being studied and the mechanisms that govern their daily lives.

- **Keywords:** Africa, Islam, society, Spirituality , Western Sudan.

المقدمة:

عندما جاء الإسلام إلى إفريقيا في بداية الفتح الإسلامي،² لم تكن هذه الأخيرة خالية من أية حركة تعبدية؛ فقد تحدث أوائل المؤرخين، والجغرافيين، والرحالة العرب الذين زاروا المنطقة عن وجود أشكال متعددة من العبادات والآلهة المحلية، التي لم يكن لها ارتباط بالديانات السماوية. وفي إطار هذه العبادات المحلية، عبد بعض الأفارقة الشجر، وعبد بعضهم الحجر، وعبد بعضهم الصنم، وبعضهم الحي، وبعضهم الميت، وفق طقوس تعبدية غريبة كان يتم التقرب من خلالها إلى عدد هائل من الآلهة - المفترضة - عبر تقديم عدد كبير من القرابين الحيوانية والبشرية والنباتية، أو غيرها من أصناف القرابين والأضاحي التي كانت تُشكل جسراً مشتركاً، ربط إفريقيا مع باقي ما عرفته قارات العالم في هذا الميدان قبل وبعد نزول الرسائل السماوية، هذه الأخيرة التي يعتبر الإسلام آخرها وأكثرها بُعداً عن التحريف، وأقواها تميزاً في ممارسة الدعوة إلى الله عز وجل، من خلال رفضه لوساطة أي كهنوت قد يحتكر المعرفة الدينية، ومن خلال فتحه باب الدعوة أمام كل مُحسن وعالم وفقه وتاجر دون إمكانية الرجوع إلى جهة رسمية ما، أو سلطة فقهية ما. ونعتقد أن النجاح الذي عرفه الإسلام في إفريقيا جنوبي الصحراء، يرجع في قسم كبير منه إلى المشاركة الجماعية الحرة في نشر هذا الدين بالحوار، والمعاملة الحسنة البعيدة عن مبدأ العنف والصراع، حيث نسج المسلمون هناك علاقات طيبة - في عمومها - مع السكان إلى حد أن التعايش بين المسلمين وغيرهم من الأرواحيين صار يبدو عادياً في كثير من القرى والمدن والغابات،³ ففي قرية "بالي" الأرواحية بمالي - على سبيل المثال - كان للمسلمين خمسة مساجد، وما

كان طارئاً في بالي، كان طارئاً في غيرها من مدن وقرى إفريقيا، التي كان لها وضع ديني متميز وغامض.

- إشكالية الدراسة: تحاول هذه الدراسة الإجابة على الأسئلة التالية:

- ماذا نعني بمفهوم السودان الغربي؟ وما هي أهم خصائصه الجغرافية؟
- ما هي أهم عناصر الديانة الأرواحية التي وجهت السلوك اليومي للإنسان السوداني؟
- وكيف مورست الشعائر والطقوس الدينية؟
- وكيف تم تنظيم مجتمع السودان الغربي في ظل هذه الديانة؟

هذه إذاً مجمل الأسئلة التي سنعمل على مناقشتها في هذه الدراسة، وهي بطبيعة الحال، لم تخلُ كغيرها من الدراسات من بعض النواقص والعيوب، لأن بلوغ الكمال لله وحده.

- أهداف الدراسة: للبحث ثلاثة أهداف رئيسية:

- الأول: معرفة دلالات مصطلح السودان الغربي وتطوره التاريخي.
- الثاني: الكشف عن أهم عناصر الأرواحية ووسائلها في منطقة الدراسة.
- الثالث: معرفة مراحل تنظيم المجتمع في السودان الغربي خلال فترة الدراسة.

- أسباب اختيار الدراسة:

وفيما يتعلق بدواعي اختيارنا لهذا الموضوع، الذي عنوانه ب: (صورة الأرواحية عند مجتمع السودان الغربي خلال العصر الوسيط). فيمكننا تلخيصها في الاعتبارات التالية:

- ➡ التعرف على الحالة الدينية لمجتمع السودان الغربي قبل الإسلام.
- ➡ الرغبة في سد فجوة من فجوات تاريخ إفريقيا القديم، ولملمة حلقاته المفقودة.
- ➡ قلة الدراسات والأبحاث العربية المتعلقة بالجانب الديني.

بناءً على ما تقدم، نسعى في هذه الدراسة إلى وضع تاريخ السودان الغربي أو "إفريقيا الغربية" بالمفهوم الحديث، على مائدة البحث لإعادة كتابته بطريقة علمية تتوخى الدقة والموضوعية

. قدر المستطاع .، وأيضا العمل على إبراز الحقائق التاريخية المنزهة والبعيدة عن الأغراض والنوايا المبيتة.

- قراءة نقدية لبعض مصادر ومراجع الدراسة:

تشكل البيبليوغرافيا بمختلف مشاربها - بدون منازع - الإطار المرجعي، والمادة الأساسية التي يستقي منها المؤرخ ويؤسس عليها فرضياته النظرية، وبناءه التاريخي - وإن كانت هذه العملية لا تخلو بطبيعة الحال من صعوبات وعراقيل - ومن هذا المنطلق اعتمدنا بدورنا في هذا العمل على مادة مصدرية حاولنا أن نستشف ونستقي منها المعطيات التي تهتم موضوع بحثنا، واستتطاق هذه المادة المصدرية، وإخضاعها لمقاربة نقدية وفحص دقيق، وبالتالي تقييم بعض أعمال المؤرخين الذين كانت لهم أهمية قصوى في مساعدتنا على معالجة الموضوع. فكان لا بد من إبراز نوعية وخصوصية التراكم المعرفي الذي يهتم موضوع هذه الدراسة، والإشكاليات التي يطرحها على المستويين المعرفي والمنهجي.

واستجابة لهذه الرغبة، لا بد من الإشارة إلى أننا اعتمدنا في بحثنا هذا على بيبليوغرافيا تبدو نسبياً غنية ومتنوعة ومتكاملة فيما بينها، وحاولنا رغم سكوتها عن العديد من الجوانب التي تهتمنا، النبش في تجاوبها لاستبطن ما تختزنه من معطيات وإفادات تتعلق بموضوع هذه الدراسة. ولإعطاء صورة أكثر وضوحاً عن هذه المصادر، وما تطرحه من إشكاليات، وإبراز حدود استفادتنا منها، سنقوم بتقييم لبعض النماذج منها.

- **ابن حوقل:** ظل أبو القاسم بن حوقل البغدادي يضيف وينقح مؤلفه (صورة الأرض) إلى حين وفاته 988م. وقد اختلف الدارسون في تحديد الحوافز الحقيقية، التي كانت وراء تجواله في البلاد الإسلامية وغيرها من مناطق العالم. ويرى البعض أن دور التاجر المتجول، لم يكن سوى قناعاً اتخذته جغرافينا للتستر على مهامه التجسسية في الغرب الإسلامي لصالح الفاطميين. في حين، يعتقد آخرون أن اشتداد المحن وتأزم أوضاع المشرق الإسلامي، شكل السبب الأساس والحافز الحقيقي لتنقلاته وتجواله. وفي سنة 951م، زار ابن حوقل سجلماسة، ومنها دخل الصحراء إلى أن وصل إلى مدينة أودغشت، الواقعة على الخط التجاري الذي يربط ما بين سجلماسة وعاصمة غانة (كومبي صالح).

وباعتبار المشاهدة والمعاينة، قد اكتسبت أقواله و معلوماته عن الصحراء والسودان الغربي أصالة ومصداقية بالغتي الأهمية. وليس أحسن من أن نعتمد وثيقة يقول صاحبها: "شاهدت وعانيت..." لذا فإننا مع ابن حوقل نسجل تطوراً ملموساً في الرواية العربية المتعلقة بالسودان الغربي؛ حيث أخذت المنطقة تؤكد بداية انفلاتها من مجال الظل والهامش بالمعنى الاصطلاحي والجغرافي. لكن ما يؤخذ على المعلومات التي قدمها ابن حوقل بأنها كانت مقتضبة جداً، وطغى عليها طابع الغرائبي.

- **البكري:** أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، عاش بقرطبة في عصر أمراء الطوائف، وتوفي عام 1094م. وعلى الرغم من أنه لم يغادر الأندلس، فقد ترك لنا مصنفاً جغرافياً على غاية الأهمية: (المسالك والممالك). والكتاب في عدة أجزاء، والجزء الخامس منه يحمل عنوان (كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب). وتكمن أهمية كتابه بالنسبة لموضوع بحثنا، في كونه يمدنا بمعلومات ثرية ساهمت في الإجابة عن عدد من الأسئلة، خاصة تلك المتعلقة بمظاهر الديانة الأرواحية، وعناصرها، بالإضافة إلى معرفة الطقوس المتعلقة بهذه الديانة، وكيف كانت تتم عملية تقديم الأضاحي. ويمكننا القول، أن معلومات البكري تعد أفضل ما وصلنا عن الأرواحية في السودان الغربي، من حيث التنوع والتفصيل.

- **ابن سعيد:** أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد، ولد في غرناطة سنة 610هـ/ 1214م، قضى معظم حياته في الأسفار والبحث وارتداد المكتبات في مختلف عواصم المشرق والمغرب الإسلاميين. وبميل محقق هذا المصدر إلى أن ابن سعيد وضع مؤلفه " كتاب الجغرافيا" في غضون الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته. وتكمن أهمية هذا المصدر، بأنه يقدم لنا معلومات لا بأس بها حول عبادة الملوك والأسلاف لدى بعض سكان السودان الغربي، وكذلك بين لنا بعض خصائص الديانة الأرواحية، واعتبرها أساس المعتقدات القديمة.

- **عبد الرحمن السعدي،** صاحب كتاب "تاريخ السودان": ولد بتتبكت عام (1004هـ/ 1596م)، عمل في بداية حياته إماماً لمسجد سنكري بالمدينة نفسها، ثم قاضياً بمدينة

جنبي، ثم صار بعد ذلك كاتباً للبasha أحمد بن عثمان، ابتداءً من عام (1056هـ/ 1664م)، وتوفي في (1065هـ/ 1655م). وعلى الرغم من الفارق الزمني بينه وبين موضوع دراستنا، إلا أنه يمدنا بمعلومات قيمة عن مفهوم السودان الغربي وإطاره الجغرافي؛ بالإضافة إلى بعض الإشارات الطفيفة عن عناصر العقيدة الأرواحية.

- سامي سعيد: "مساهمة في دراسة تاريخ الحياة الدينية في السودان الغربي خلال العصر الوسيط: الدين والعلم في عصر الأسكيين 1493 - 1591م". أصل هذه الدراسة رسالة جامعية نوقشت في رحاب جامعة سيدي محمد بن عبد الله (المغرب)، العام الجامعي 1991-1992. وتعتبر هذه الدراسة من الأبحاث الهامة التي تناولت منطقة دراستنا؛ إذ مكنتنا من تقديم إجابات على بعض الأسئلة تتعلق بوصف الديانة الأرواحية وأهم وسائلها وطقوسها.

- كادا دي مستو: "Relation des voyages a le cote occidentale d'Afrique 1457-1455"

وقدّم لنا معلومات جد مهمة حول تنظيم المجتمع في ظل الديانة الأرواحية، والطقوس والشعائر التي مارسها الإنسان في ظل الديانة الأرواحية. وتختلف الرحلات الأوربية عموماً عن نظيرتها العربية - وهي برية - في كونها أدركت السودان الغربي بحراً. وتختلف عنها أيضاً لأنها تصف بلدانا وشعوباً سودانية مجاورة للمحيط لم تعرف بها الرحلات العربية، أو لم تولها ما يكفي من العناية، خاصة وأنّ هذه الرحلات ركزت على المناطق الداخلية من بلاد السودان الغربي. وعلى الرغم من الأهمية لمثل هذه المصادر، إلا أنه وجب التعامل معها بحذر؛ لأنها تبقى سجيّة النظرة الاستعلائية.

- منهج الدراسة (الإطار النظري والتطبيقي):

أما عن المناهج التي تمّ التسلح بها في دراسة البحث؛ فقد تمّ التركيز على المنهج الاستقرائي؛ فاتجهنا إلى القراءات المكثفة لكم لا بأس به من المصادر، والمراجع، ومن ثم في مرحلة لاحقة تمّ استنباط وتفكيك النصوص المصدريّة التي تمّ عليها بناء الشكل العام للدراسة.

وكذلك عولنا على المنهج الوصفي؛ حيث ركزنا على وصف عناصر ومظاهر الديانة الأرواحية، وذلك من خلال الاستشهاد بمجموعة من النصوص. وأخيراً تمّ الجمع بين تلك المناهج ضمن خلاصة علمية تهتمّ الموضوع بشكل خاص، حيث تمت إعادة تركيب المعلومات بطريقة منهجية؛ عالجت تطور دلالات مصطلح بلاد السودان، وإطاره الجغرافي، بالإضافة إلى معرفة خلفيات العقيدة الأرواحية، ودورها في بناء المجتمع. ورغم ذلك فإننا لا ندعي القدرة على الانفتاح على تلك الطفرة المنهجية الواسعة في مجال دراسة العلوم الإنسانية، ومحاولة توظيفها في انجاز الدراسة، ربما سبب ذلك طبيعة الموضوع، وقلة مصادره.

المبحث الأول: (مفهوم السودان الغربي وإطاره الجغرافي)

ليس من شك في أنّ البشرية تسعى منذ القدم للاتصال فيما بينها، رغم وجود عقبات طبيعية، كالصحراء الإفريقية، التي تفصل شمال القارة عن جنوبها. ورغم ذلك وجدنا عبر العصور تسريبات لمؤثرات بشرية من الشمال إلى الجنوب، وهي الغالبة، ومن الجنوب إلى الشمال، وكان ذلك خلال مسالك تخترق الصحراء التي تفصل بين بلاد الشمال الإفريقي والبلاد الواقعة جنوبي الصحراء، أو ما يُعرف بالسودان الغربي عند المؤرخين العرب. الذين ربما أطلقوا هذا الاسم على المنطقة نظراً لأنّ سكانها لهم بشرة سوداء.⁴

ويجري بالمنطقة نهران رئيسيان هما نهر السنغال، ونهر النيجر، الذي سماه الرحالة والجغرافيون العرب أحياناً نهر النيل أو بحر النيل؛ نظراً لأنه يغمر مناطق شاسعة وقت الفيضان، وبه جزر صغيرة، وفروعاً، ودلتاً، خاصة في مجري النيجر الأوسط. كما تتميز المنطقة بوجود مستنقعات وأدغال. وقد تغلغل الإسلام في منطقتنا التي عرفت قيام ممالك إسلامية، نسجت علاقات متعددة مع بلاد المغرب، خاصة التجارية منها؛ إذ يجلب من المغرب الملح الذي يُحتاج إليه بكثرة، بالإضافة إلى الحبوب والتمور والثياب والأواني، ويجلب من منطقة السودان الغربي الذهب خاصة والعاج والعبيد.⁵ واستطاعت بلاد السودان أن تغتني من تجارة الذهب والملح بالدرجة الأولى، مما خول لها شهرة طبقت الآفاق، الشيء الذي جعل الرحالة العرب يتجهون إليها ليشاهدوا ويعاينوا ما

يحكيه التجار وليسجلوا في كتاباتهم وشهاداتهم، ما اعتمده الأوروبيون في معرفتهم لذلك العالم المجهول عنهم حتى القرن 19م. وبلغت شهرة بلاد السودان الغربي مستوى عالي إلى درجة أن الخرائط الأوروبية صورت ممالك ذهبية وسط الصحراء. وجعلها هذا الغنى محط أطماع الطامعين سواء المحليين أو الأوروبيين أو سكان شمالي الصحراء، وتبلور هذا في نشأة عدة ممالك سودانية أشهرها غانة⁶ ومالي⁷ وفي مجيء الأوروبيين لكي يصلوا إلى مصادر الذهب وكذلك في تغير العلاقات بين المغرب والسودان، بعد سعي السعديين للسيطرة على هذا الغنى، ضاربين بذلك هدوء العلاقات التجارية والثقافية والسياسية الودية، التي كانت بين المنطقتين.

خلاصة القول، من خلال فحص واستقراء بعض النصوص والمصادر التاريخية، التي تتصل بموضوع دراستنا، يتضح لنا أن تطور اصطلاح السودان الغربي ارتبط بتغير الظروف، واهتمامات المؤرخين؛ ويتجلى ذلك فيما يأتي:

- إنَّ المضمون الاستعمالي لهذا المصطلح عرف تطوراً ملحوظاً، والاستعمال السلافي - أي سواد اللون - فيه الدلالة التي غلبت على استعماله؛ حيث أطلق في البداية على الشعوب السوداء التي قطنت الوحدة الجغرافية الممتدة من بلاد النوبة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن الصحراء الإفريقية شمالاً إلى ما وراء خط الاستواء جنوباً.
- إنَّ اصطلاح بلاد السودان الغربي، بمفهومه الواسع، شكل في البداية تعبيراً عن الوحدة الجغرافية الكبرى التي امتدت على طول الحدود المذكورة أعلاه، ومع تطور المعرفة بالمنطقة، تم تحديد الوحدات الجغرافية الصغرى الموجودة داخل هذه الوحدة الكبرى؛ من ممالك، وأمم، وشعوب، ثم أصبح هذا المصطلح يطلق على القسم الغربي من القارة السوداء.
- إنَّ التحديد الجغرافي، والبشري لبلاد السودان الغربي يكتنفه نوع من الغموض، والاضطراب⁸، وهذا لا يدعوا للاستغراب، أو الدهشة؛ ذلك أن مفهوم الحدود، آنذاك، لم يكن متداولاً بالصيغة التي نعرفها اليوم.
- كما إن مفهوم السودان الغربي حظي في تصور الخاص، والعام بمواصفات أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع؛ حيث اعتبر مركزاً تجارياً مزدهراً "لكثرة من ينتابها من جميع

زوايا المعمورة من ركاب البحر وأرباب البضائع الثقيلة الذين يضربون إليها أكباد الإبل من كل فج عميق..⁹، كما اعتبر منطقة جذب اقتصادي بفضل ما كانت تزدهر به من ثروات، وموارد طبيعية، وبشرية، ولاسيما وأنها..أرض كرم الله تربتها وأبان فضلها بما اختصها من معادن الذهب، فهي مجلب التبر إلى المشارق والمغارب في الحديث والقديم..¹⁰

انطلاقاً من هذه الملاحظات، وتقديراً لكل لبس، واضطراب حاصل في المصادر حول هذا المفهوم، فإننا سنوظف اصطلاح (بلاد السودان الغربي) للتعبير عن الفضاء الجغرافي الممتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى حواشي بحيرة تشاد شرقاً، ومن جنوب الصحراء الكبرى إلى نطاق الغابات الاستوائية. وبحسب الإحداثيات المعاصرة، تنحصر بلاد السودان فيما بين خطي العرض 11 و17 شمالاً.¹¹

المبحث الثاني

(عناصر الديانة الأرواحية ووسائلها)

كانت الوثنية بشكل عام هي الديانة الأساسية بل الوحيدة التي تتبثق منها الطقوس، وتوجه المجتمعات الإفريقية حتى وصول العرب المسلمين إلى تلك المنطقة خلال القرن 2هـ / 8م، وسيطر طابع الأرواحية (الإحيائية) على الوثنية هناك؛ حيث ظلت تسيطر على الذهنية في مرحلة ما قبل المد الإسلامي.¹²

ويتلخص مضمون الأرواحية في اعتقاد معتققيها بأن كل الأشياء لها أرواح، وأن مصدر قوة الطبيعة هو إله أعلى، وأعظم من كل الآلهة الأخرى يهبها قوته، مع عدم الاتفاق على صفاته، ولا الطريقة التي يتم التقرب له بها، وما إذا كانت عبادته إلزامية أم اختيارية، حيث كان بعضهم يرى أن الإله الأعظم غير مهتم بما يدور على الأرض، وأنه ترك العلاقة بين البشر، والإله لأرواح أقل أهمية منه، فهي بالنسبة لهم أحق، وأولى بالعبادة منه ما دامت إرادته كذلك. بينما كانت مجموعات أخرى تعتقد بأنه يراقب سلوك البشر، ليكافئ المستقيمين، ويعاقب المخطئين، فكانوا يعبدونه، ويقدمون له القرابين، ولكن طرق عبادتهم له اختلفت من مجموعة إلى أخرى؛ حيث شاعت بين بعض الجماعات صناعة بعض التماثيل الخشبية، أو المعدنية، وعبادتها،¹³ وبالتالي

يمكن إلحاقها بغيرها من المجتمعات البشرية التي كانت تعبد الأصنام، وهي العبادة الأكثر انتشاراً بين أهالي المنطقة، ويمدنا البكري ببعض المعلومات عنها؛ فيقول: "وكانوا [أي سكان تكرر] على ما سائر السودان عليه من المجوسية، وعبادة الدكاكير؛ والدكور عندهم الصنم".¹⁴

ونفس هذه التسمية نجها عند ابن سعيد، في وصفه لحياة زغاوة ولملم "أي أهالي مملكة مالي" الدينية.¹⁵ ومن الأصنام الشهيرة التي تردد ذكرها في مصادرها، صنم في صورة امرأة، كان منصوباً على إحدى قلاع مملكة مالي، جنوبي منعطف نهر النيجر، فأتخذ القوم رباً يعبدونه ويحجون إليه.

وتبدو لنا القبائل الأرواحية المجاورة للمحيط الأطلسي، بين نهر غامبيا وخليج غينيا - على الأقل من خلال المستكشفين الأوربيين، ولا سيما كادا موستا (Ca Da Mosto) - متعلقة أكثر بعبادة الأصنام من باقي بلاد السودان الغربي.¹⁶

وهذه الأصنام عبارة عن تماثيل بهيئة بشرية في الغالب الأعم. وقد تكون من طين أو حجر أحياناً، وكثيراً ما تكون من خشب، ربما لأن المنطقة كانت كثيرة الغابات، وتوفر بالتالي الكثير من الأخشاب. والملاحظ أنّ الأصنام لعبت دوراً كبيراً في حياة السكان، فكانوا يقدمون لها الطعام والقرابين، وكان هناك أصنام ترمز إلى الأمراض والحروب والأسلاف والعدل، وأصنام خاصة بالشيوخ، وأخرى بالنساء، وضعت في معابد لا يدخلها الرجال. بيد أنّ أهالي السودان الغربي لم يترددوا في مقايضة أنواع من أصنامهم بسلع كانت تأتي بها السفن البرتغالية إلى المنطقة.¹⁷

ومن مظاهر الأرواحية أيضاً، عبادة الكواكب والحيوانات؛ وخاصة الثعبان. وأورد البكري في هذا الصدد مثلاً عن جماعة من السودان الغربي، كانت تُقدس هذا النوع من الزواحف. فدأب السكان المحليون على عبادته، وتقديم الطعام والشراب له، وتعليق نفائس الثياب والمتاع على مدخل المغارة حيث كان يعيش، معتقدين في ذلك أنّ الثعبان وحده يملك القدرة على إنزال المطر، وأنّه المسؤول عن حمايتهم من كل مكروه، وحراسة كنوزهم، بل كان مصدر السعادة والشقاء، ومانح النجاح والفشل.¹⁸

وغير خافٍ، أن تقديس الثعابين لم يكن خصوصية إفريقية فحسب، وإنما كان معروفاً أيضاً في بلدان وسيطية أخرى، مثل الصين والهند، حيث كانت تحظى بنفس التعظيم. ونفس الأمر يصح عن مصر القديمة، حيث كانت تُعبد آلهة في صورة حية (كوبرا)، تلعب دور حماية الفراعنة، وتحضر في احتفالات تتويجهم، إلى جانب آلهة أخرى.

فوق هذا وذاك، لم تكن عبادة النار والكواكب غائبة في الديانة الأرواحية، ولكن يظهر أن الشمس حظيت فيها بمنزلة خاصة. ومن هنا، تكرر ذكر تعظيمها لدى كثير من الشعوب الإفريقية، ولا سيما بمدينة أودغست وشواطئ خليج غينيا.¹⁹

ودون الخوض في التفاصيل الدقيقة المقترحة بهذا الشأن، يُمكننا القول إجمالاً، إنَّ هناك ارتباط وثيق بين الأرواحية وعبادة الملوك ببلاد السودان الغربي، فكانت الرعية تعتقد أنهم قدموا من السماء؛ أي أن لهم طبيعة إلهية تجعلهم قادرين على جلب النعمة والنقمة، كالحياة والموت والعافية والمرض. كما منحهم تلك الطبيعة سلطة مطلقة على الرعية التي أحاطتهم - نتيجة لذلك - بكثير من مظاهر العبادة والتعظيم، واعتقدت بالتالي أنهم يُحيون بدون طعام. ولعدم المساس بهذا الاعتقاد، كان بعض الملوك يأكلون خفية، وكان آخرون يوهمون الناس أنَّ غذاءهم يقتصر على كأس من الخمر في اليوم، بينما كان منهم من يتظاهر بأنه لا يأكل البتة، مثلما هو الأمر عند "زغاوة".

بيد أن الملكية المقدسة هذه - رغم مظاهر الخضوع المطلق فيها - كانت لها ضوابط صارمة، تمس على الخصوص مسألتَي القدرة والعدل، فقد لاحظ البكري أن الماندينغ في الضفة الجنوبية من نهر غامبيا يقتلون ملكهم، ويستبدلونه بأحد أفراد أسرته إذا تبين لهم عجزه عن ممارسة السلطة بسبب تقدم بالسن، أو مرض عضال.²⁰

وبالمقابل، تظل قُدسية الملك عند الأرواحيين قائمة بعد وفاته؛ إذ يدفن بطقوس خاصة، ويحظى بالعبادة والقرايين، إلى درجة تسمح بمقارنتهم بمنزلة الفراعنة عند قدماء المصريين.

وبعد الوفاة يدخل الملوك في إطار الأسلاف الذين كانوا يُعبدون أيضاً، وكانت عبادتهم تشكل إحدى دعائم الديانة الأرواحية في إفريقيا قبل دخول الإسلام إليها، فالأجداد بالنسبة للإفريقيين هم المسؤولون عن وضع أسس تقاليد الجماعة وأعرافها، وربوا خَلْفَهُم على تلك الأعراف

والثقافات، وموتهم لا يعني بالنسبة لأبنائهم وأحفادهم الفناء، وإنما تبقى أرواحهم بعد انتقالها إلى عالم آخر تُراقب تصرفات الأبناء،²¹ فمن حاد منهم عما سنّوه له من تقاليد أوقعوا به الشر، ومن التزم أحاطوه برعايتهم، مما جعل الإفريقيين يتقربون إلى أسلافهم بالذبائح عند قبورهم،²² فهذا تفكير ديني يعكس في نظرنا مجموعة من القضايا:

- التقسيم الاجتماعي لشعوب إفريقيا القديمة.
- أنه لم يكن الإنسان الإفريقي بدائياً كما يحلو للبعض نعته.
- وأن الفرد الإفريقي قد نظم أموره الدينية وفق عقلية معينة، كما نظم من شؤونه السياسية والاقتصادية؛ حيث انفتح على العالم المجاور بواسطة تجارة الذهب والعبيد.

لقد عكست إذاً الديانة الأرواحية طريقة تفكير شعوب السودان الغربي، ومثلت الوضع الطبقي، واستطاعت أن تجيب عن بعض الانشغالات المصيرية السالفة الذكر، والتي حيرت فكر الأفارقة. لكن الحياة اليومية اقتضت اللجوء إلى السحر والعرافة. فمبادا يمكننا أن نقول عن ظاهرة السحر بالسودان الغربي في إطار الديانة الأرواحية؟ وما هو دور السحرة في ممارسة هذا الاعتقاد؟

غالباً ما تقترن الأرواحية الإفريقية بظاهرة السحر والعرافة لشرح بعض ضوابط الحياة الاجتماعية مثل الزواج والطلاق، والسلم والحرب، والمرض والاستشفاء، والحمل والولادة، والعلاقة بين أفراد العشيرة، وارتبطت العرافة ارتباطاً وثيقاً بالسحرة؛ إذ ساهم العراف في حل بعض المشاكل اليومية، والحفاظ على التنظيم الاجتماعي السائد، فعزز المفاهيم السائدة، وأيد الحكم القائم، وساعد في حل الخصومات، فإذا كان القصد من السحر هو تحقيق خير، أو إلحاق شر، فالقصد من العرافة هو الكشف عن أمر مجهول بمساعدة الأرواح، واستمدت العرافة قوتها من اعتقاد الإفريقيين فيها.²³

خاتمة القول، يمكننا أن نستنتج من خلال ما سبق ذكره، أن أهالي السودان الغربي قد كونوا عقائد دينية اعتمدت على عناصر متعددة، توسطت بين الخالق والمخلوق؛ وبذلك أبان هؤلاء عن تطور في عقليتهم الدينية من المرحلة البدائية إلى مرحلة الوساطة الدينية. وبالتالي، سوف ينقل

الإسلام أهالي المنطقة إلى مرحلة العبادة المباشرة، بين خالق واحد ومخلوقات واعية مدركة خلق العالم.

وإذا كانت الديانة الأرواحية قد اعتمدت على الأجداد، والأرواح، والسحرة والعرافة، فكيف مارست طقوسها الدينية؟ وما هي مناسباتها؟

في البداية لا بأس من التعرف على الهدف من تقديم الأضاحي في الشعائر الأرواحية.

- مسألة تقديم الأضاحي والهدف منها:

يقول البكري عند حديثه عن ديانة مملكة غانة بأنَّ الأهالي "يذبحون لموتاهم الذبائح، ويُقربون لهم الخمر".²⁴ وهذه مسألة أساسية في العقيدة الأرواحية. وعلى ما يبدو، كانت تتنوع حسب أهمية المتوفى ودرجة وساطته لدى الخالق، فهي في هذا النص قد شملت الأضاحي والخمر، لكن ألم تشمل في مناسبات أخرى قرابين بشرية؟

إنَّ نفس المؤلف يتحدث عن بعض الخدم الذين كانوا يدفنون أحياء مع ملك غانة المتوفى. إذ يقول: "وإذا مات ملكهم عقدوا له قبة ووضعوها في موضع قبره، ووضعوا معه حليته وسلاحه، وأدخلوا معه رجالاً وأغلقوا عليهم باب القبة".²⁵

فهناك إذاً اعتقاد في استمرار الحياة بعد الموت، ثم إنَّ الأهالي كانوا يعتقدون . بدون شك . في أنَّ ملكهم سوف يدافع عن مصالح قبيلتهم وهو في قبره، لدى الخالق الأعظم. لذلك كانوا يقدمون له القرابين المختلفة، وفي المناسبات المتعددة: كانحباس المطر، أو الشروع في حرب عسكرية، أو ما شابه ذلك من أمور هامة.²⁶

- الشعائر الدينية الأرواحية المرافقة لحياة الإنسان ولموته:

تختلف الديانات اعتباراً لتنوع طقوسها وشعائرها، وهي بالنسبة للديانة الأرواحية تغطي أهم الفترات الحاسمة في حياة الفرد. كما لها أيضاً تقاليد معينة عند الوفاة لكونها تشكل مرحلة انتقالية لعالم غير مرئي. فما هي إذاً، أهم الشعائر الدينية التي ترافق مراحل حياة الفرد في مجتمع السودان الغربي؟

1. الحمل والولادة:

يتربق الزوجان باهتمام بالغ ظهور بوادر الحمل على الزوجة، وإذا تأخرت علاماته سارعا إلى اتخاذ كل ما يعتقد في فعاليته. ومن وسائل لإزالة المانع له، بما في ذلك تقديم الأضاحي إلى أرواح الأسلاف، واستشارة العرافين و اتباع ما يشيرون به من علاج. وتعرف الأفارقة كغيرهم من الشعوب، على أنَّ الحمل يتم عبر الاتصال الجنسي، وإذا حملت المرأة دخلت مرحلة تتميز بمحظورات عديدة منه: تجنب الاتصال بغير زوجها وإلا تعسرت ولادتها، كذلك ينبغي أن تتناول أطعمة معينة، فليس لها مثلا أن تأكل لحم بقرة ماتت وهي تلد، حتى لا تلقى نفس المصير. وإذا استمر الحمل إلى نهايته ووضعت المرأة حملها، فإنها تخضع لقيود أخرى، فيلزمها زوجها أن تحتجب عن الرجال لمدة شهر أو أكثر، بهدف الإقلال من تكرار الحمل في فترات متقاربة. وبعد الولادة مباشرة، تبسط على سقف البيت بعض الأغصان لحماية المولود من شر الساحرات. ويحضر الزوج دواء يسكب بعض جرعاته على ثدي الزوجة، ثم تستدعي الأرواح، ويؤذن للزائرات بالدخول.²⁷

خلاصة القول، يتضح لنا جليا أنَّ جلَّ هذه التقاليد والطقوس عكست الفهم الأرواحي للحياة، فنلمس الخوف من المجهول، وخشية السحر والمتعاطي له، ومحاولة الأهالي اكتساب رضى الأرواح حتى تأخذ الحياة مجراها الطبيعي دون مشاكل. ومن ثم يمكن تفسير السخاء في القربين والأضاحي خصوصا من أجل الإنجاب، لما حظيت به الخصوبة من اهتمام خاص عند مثل هذه المجتمعات.

2. طقوس الزواج:

لا شك أنَّ الزواج هو ضامن استمرارية الجنس البشري، ومن شأنه أيضاً أن يعزز الروابط بين أفراد المجتمع، كما أنَّه ضرورة أخلاقية وواجب اجتماعي. وما من جدل في أنَّ الإنسان السوداني كان يعي هذه الحقائق.

وتتجلى الأبعاد الدينية للزواج عند الأرواحيين في استشارة رب الأسرة لأجداده. وإذا كانت طقوس الاحتفال بهذه المناسبة قد اختلفت اعتبارا لتنوع القبائل والعشائر بالسودان الغربي، فعند قبائل السيرير (Séner)²⁸ كانت العادة أن تغتسل العروسة قبل مغادرة بيت أبيها، وتخطو ثلاث مرات عتبة البيت، وتتلقى بعد ذلك خمس دعوات من طرف الشيوخ، ثم تأخذ العروس لحافاً يحفُّ

جسمها ورأسها لكي تنسى طريق العودة إلى بيتها الأول، وتستقر نهائياً في منزل زوجها، فلا تتعرض للطلاق.²⁹

فكما نلاحظ فإنّ الأرواح تحضر كل مناسبة لتبارك الأحياء. لقد مارس الأرواح طقوسه في الفترات الحاسمة في حياته، وهو بذلك كان يحافظ علة تقاليده التي ورثها عن آبائه؛ أي أنه حافظ تراتبية المجتمع، لكنه قام أيضاً بشعائر يومية.

3. الشعائر الدينية المرافقة للعمل اليومي:

لقد أقام الأرواحيون العديد من المعابد والهيكل الدينية بالغابات، والتي أشرف عليها الكهنة والسحرة. وكانت تستغل في المناسبات التي تهم مصلحة الجماعة أو العشيرة مثل: انحباس المطر، تولية ملك جديد، أو الشروع في حرب عسكرية.³⁰ فضلاً عن ذلك، كان لكل فرد معبده الخاص سواء في البيت أو في خلوة يختارها لنفسه. وغالباً ما كان الفرد يتعب وهو يقوم بأعماله اليومية. فكيف كانت تتم هذه العملية؟

لقد اعتمدت ساكنة السودان الغربي على الفلاحة بشكل رئيسي، لكن الظروف الطبيعية لم تكن دائماً ملائمة؛ فقد تنحبس الأمطار أو يتأخر سقوطها، لذلك التجأ الأرواحيون إلى التعبد لطلب الغيث، كما أنّ الفلاح كان يقدم الأضاحي لأرضه ليحصل على خصوبتها.³¹ ومارس الفلاح أيضاً نشاطاً آخر وهو الصيد في البراري، وبما أنّ هذا العمل سوف يعرضه لقوى خفية مخالفة لأرواح الإنسان، فعليه أن يقوم ببعض الدعوات لاستجلاب صيد وفير، ولطرد الأرواح الشريرة التي قد تعترض سبيله أو هدفه. وقد اعتداد الفلاح على ترديد الابتهالات التالية عند خروجه للصيد:

إنني ذاهب إلى الغابة

فاحفظني من الثعبان الشرير

ومن كل الأشياء الشريرة

أيها الجد لقد دافعت عنك، فساعدني.³²

وعندما كان يخرج أحد شباب قبيلة بوا (Bwa)³³ للعمل في جهة مجاورة، أو للتجارة، فإنّ أباه كان يرافقه إلى مفترق الطرق الرئيسية، وهو يحمل دلوّاً من الماء ويخاطب الإله قائلاً: "إذا عاد ابني سالماً، فإنني سأهديك شاه".³⁴ ويمكننا إذاً أن نستنتج، بأنّ الطقوس الأرواحية مورست عند

الشروع في عمل ، أو القدوم على اختيار مجهول النتائج، فتولية ملك جديد تعني نهاية عهد قديم وبداية عهد جديد، لا يعلم أحد انعكاساته على الفرد والجماعة. وعند بذر البذور، يقدم الأرواحي الأضاحي للاطمئنان على سقوط الأمطار، لأنه لا يعلم متى ستسقط وكم هي كمياتها. وعند ازدياد مولود يستقبله ببعض الشعائر لضمان تربيته تربية سلمية بعيدة عن الأخطار.

فهذا المستقبل المجهول، هو الذي حدد الطقوس والشعائر في الديانة الأرواحية. ومن أجل التغلب على مخاوفه ومخاطره تم الالتجاء إلى العرافة والسحرة العارفين بالغيب، وإلى الأسلاف والأجداد المقربين من الإله الأعظم الذي تصدر عنه الأحكام.

لقد كان للفرد السوداني تصور معين عن الخلق وطريقة تسيير المخلوقات، فهو بذلك يكون قد كَوّن فلسفة خاصة به اعتمدت على طقوس وشعائر محددة ومرتبطة بكل حالة أو حدث مرتقب. لقد أملت ظروف الحياة اليومية هذا التصور أو تلك الفلسفة. وإننا لنأسف كثيراً لجهل الإنسان السوداني للكتابة في هذه الفترة، وإلا كنا قد عرفنا علاقة الديانة الأرواحية بالعلم، واطلعنا بذلك على مميزات الانتاج الفكري السوداني في العهد الأرواحي.

وإذا كان السودانيون قد كونوا تصوراً معيناً عن العالم المعاشي، فما هو المفهوم الذي أعطوه لمرحلة ما بعد الموت؟

4. الموت وطقوسه:

لقد اعتقد السودانيون القدامى استمرار الحياة بعد الموت، بدليل ما كتبه عنهم البكري، إذ يقول: "وإذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب، و وضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير، فأدخلوه في تلك القبة، ووضعوا معه سلاحه وحليته وأنيته التي كان يأكل بها ويشرب، وأخلوا فيها الأطعمة والأشربة، وأدخلوا معه رجالاً ممن كان يخدم طعامه وشرابه، وأغلقوا عليهم باب القبة، وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة، ثم اجتمع الناس فردموا فوقها التراب".³⁵

ويبقى السؤال المطروح هنا: لماذا كل هذا الاهتمام بالأموات؟ لماذا كان يتم توفير المأكل، والملبس، والخدم، والسلاح، والحلية؟

إنه الاعتقاد الجازم في استمرار حياة الملك حتى بعد وفاته، ولأن الملك كان له الدور القيادي في حياته، فلن يقل دوره أهمية بعد مماته، حيث بإمكانه أن يصبح سلفاً أو روحاً مقربة من

الإله الأعظم، يدافع عن مصالح مملكته إذا انحس عنها المطر، أو تعرضت لهجوم عسكري، أو ما شابه ذلك من صعوبات.

لقد اعتقد الأرواحيون استمرارية الحياة وأهمية مرحلة ما بعد الموت، لأنها تمكن من الاتصال بالأرواح للدفاع عن مصالح الأحياء. ونظراً لحساسية الموقف تبدأ مباشرة بعد الإعلان عن الوفاة، حيث تقام رقصات على أنغام الطبول، وبعد ذلك يتم إرسال الرسل لنعي المتوفى. وحفاظاً على الأحياء من نجاسة الموت تقدم للإله في البداية دجاجة صغيرة كقربان، وبعد ذلك يتقدم الكاهن ليحاور الميت عن سبب وفاته التي قد تكون غير طبيعية، فيجب إذا وضع بعض الأسئلة على المتوفى، لإحداث الخلل الذي حدث في الأرواح، ولدفع أخطار وفاة مماثلة عن باقي أفراد القبيلة.³⁶ ونظراً لأهمية الأموات فإنّ البمبارا كانوا يقيمون احتفالاً سنوياً تقدم فيه الأضاحي إلى أرواح هؤلاء، ويتقدم زعيم القبيلة لينشد بعض المقاطع، في حين يلتزم الباقي الصمت:

هيا بنا أيها الرجال والنساء والأطفال نطلب السماح

ونقدم القرابين للإله الذي يرعانا

نطلب السماح من الأموات والأرواح والأصنام

لقد حدد الشيوخ هذا اليوم للاحتفال بموتاهم.³⁷

إنّ الموت كان من دون شك يحدث خللاً على المستوى الاجتماعي للشعوب الأرواحية، لأنه كان يفرق بين الأهل والأحباب، ثم يترتب عنه الحزن والحداد، وربما الانتقام من السحرة الأشرار. لكن على ما يبدو فالسوداني لم يكن يخشاه لأنه كان يرى فيه وسيلة عبور للالتقاء بالأجداد. فالموت في تصور الأرواحية كان طريقة ينتقل بها الفرد من عالم "الأحياء المرئيين" إلى عالم "الأموات الأحياء". فلم يكن انقطاع عمل الفرد، بل هو استمرار لحياة أخرى قرب الأسلاف الذين تنتقل إليهم روح الميت، في حين تظل بعض أجزاء جسمه مدفونة في فناء المنزل أو في الغابة، كرمز لاستمرار العلاقة بين العالم المرئي و الغير مرئي، فالحضور إذاً كان ازدواجياً.³⁸

وعليه يمكننا القول بكل اطمئنان، بأنّ الإنسان في السودان الغربي كان متديناً في أعماله اليومية، وفي المناسبات العامة. واعتقد كذلك بوجود الكون والخالق، وفسر العلاقة بين الخالق والمخلوقات وفق منظور خاص يعتمد أساساً على ممارسة خفية لقوى أرواحية. والملاحظة

الأساسية التي يجب أن نسجلها، هي أنه قد مارس الطقوس الدينية خصوصاً في المواقف والاختيارات التي كان يجهل نتائجها، فازدياد مولود أو القدوم على الزواج، أو ممارسة تجارة..الخ، كلها أمور لم يكن الفرد في السودان الغربي يتحكم في عواقبها. لذلك كان يقوم بطقوسه التي نظمتها له فئة الكهنة والسحرة. وفي ذات المسعى، يمكن القول أن الرغبة في التحكم في الحدث المجهول الذي ينتظر وقوعه مستقبلاً، هي ما كان دافعاً للأرواحي من أجل الاعتقاد والتعبد في الأرواح والقوى الغيبية والسحر اعتقاداً جازماً شمل كل دقائق الحياة الخاصة والعامة.

وإذا كنا قد أشرنا بإيجاز لأهم الاعتقادات التي سادت في السودان الغربي قبل وصول الإسلام، ولعناصر الديانة الأرواحية ولطقوسها وشعائرها، فلا بأس أيضاً من تقديم دراسة مقتضبة عن الأثر الذي أحدثه هذا الاعتقاد الأرواحي على المجتمع في السودان الغربي.

المبحث الثالث

(تنظيم المجتمع في ظل الديانة الأرواحية)

1. تنظيم الأسرة والعائلة:

تكونت الأسرة في بلاد السودان الغربي خلال هذه الفترة من الأب والأم والأبناء، وكذلك الأحفاد. وعاش الجميع في منزل واحد، وانتضى هؤلاء إلى جد مشترك، وارتبطوا فيما بينهم إما برابطة أمومية أو أبوية، فكانوا يرثون أملاك الأم أو الأب. ومن أهم المجتمعات التي طغت عليها العلاقة الأمومية في السودان الغربي مجتمع السيرير (La Sérer).³⁹

والغالب على الظن، أن العامل الذي كان يحسم الانتماء الأسري هو جنس الجد المشترك، وكان رب الأسرة المسؤول عن تسييرها، وعن حل كل خلاف قد ينشأ بين أفراد هذه الخلية الاجتماعية، وهو الذي كان يحافظ على الأملاك، ويوزع العمل. وكانت له مهام أخرى تتجاوز أحياناً حدود بيته، منها المشاركة في مجلس شيوخ القبيلة.⁴⁰

لقد كانت الأسرة الممتدة أول مؤسسة اجتماعية تتكون من أفراد متعددين، تجمعهم علاقات متنوعة، ويوحدتهم الانتماء إلى جد مشترك. بمعنى آخر، إن مجتمع السودان الغربي في الفترة السابقة للإسلام كان مجتمعاً تراتبياً، لكن هذا المجتمع لم يكن موحداً؛ لتعدد الأسلاف والأجداد، ولتنوع الاعتقادات، وكثرة الشعوب. لذلك حاول الإسلام الانتقال بقبائل السودان الغربي

من مرحلة التجزؤ في العقائد إلى مرحلة الوحدة الدينية، كما عوض نظام الأسرة الممتدة بالأسرة المحدودة الأفراد.⁴¹

2. تنظيم القبيلة:

القبيلة هي الشكل الثاني للتنظيم الاجتماعي للشعوب الأرواحية بالسودان الغربي. وقد تكونت هذه القبيلة من مجموعة من العشائر. لكن ما هو التعريف الذي يمكن اعطائه لمصطلح العشيرة؟

يجيب دولافوس (Delafosse) على ذلك، إذ يقول: "إنَّ العشيرة هي في حقيقة الأمر مجموعة من العائلات التي تنتمي إلى جد واحد، وترتبط فيما بينها بعدة علاقات، منها على سبيل المثال، اختيار زعيم القبيلة".⁴²

إنَّ الروح الترابطية التي لمسناها أثناء حديثنا عن الأسرة الأرواحية، نلمسها مرة أخرى في العشيرة التي كانت تتوحد فيما بينها على أساس ديني أولاً، لأنها كانت تنتمي إلى جد مشترك يكون أساس الممارسة الدينية. لكن هذا الجد تعدد بتعدد العشائر والقبائل والمجموعات بالسودان الغربي، وسوف يحاول الإسلام أن يغير هذه الرابطة التضامنية برابطة أوسع وأعمق، لكل العشائر والقبائل هي رابطة الدين الواحد.

كما أنَّ هذه القبائل كانت تستغل مسألة الزواج فيما بينها، لتعزز وتنمي علاقاتها، فرابطة الدم أيضاً لها حضور سياسي في المسألة.

3. حول بعض المجتمعات ذات القرابة الأمومية:

هناك ملاحظة مهمة يجب إبدائها بهذا الصدد؛ وهي أنَّ جل المجتمعات القبلية كانت تجعل القرابة من ناحية الأم، فالأبناء لا يعتبرون أعضاء في جماعة أبيهم وإنما يعتبرون أفراداً في جماعة الأم، لذا فإنَّ أقاربها يلعبون في حياة الأبناء دوراً يفوق في أهميته دور أقارب الوالد. ولا أدل على ذلك، من أنَّ للخال في هذه المجتمعات من الحقوق وعليه من الواجبات ما يتجاوز كثيراً حقوق الأب وواجباته تجاه أطفاله.

وقد أثارت هذه الملاحظة انتباه بعض الجغرافيين والرحالة العرب منذ مطلع العصر الوسيط، إذ يقول البكري في هذا الصدد: "وبسي هذا خال تنكامين [ملك غانة 460هـ]، وتلك سيرتهم ومذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن اخت الملك".⁴³

وقد أبدى الرحالة المغربي ابن بطوطة اندهاشاً كبيراً للمكانة التي حظيت بها المرأة في مجتمع السودان الغربي، وخصوصاً في مدينة ولاتة. إذ يقول: "ولنساء ولاتة الجمال الفائق، وهن أعظم شأنًا من الرجال، وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب، فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله، ولا يرث الرجال إلا أبناء أخته دون بنيها، وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود".⁴⁴

ولقد ظلت الزوجة في هذه المجتمعات تحتفظ بانتمائها إلى قبيلتها حتى بعد زواجها، وتمارس سلطة غير محدودة على أبنائها إلى درجة يمكنها أن تختار زوجة لأبنها دون استشارة أحد.

نستنتج إذًا بأن السودان الغربي قد عرف في عصوره القديمة انتشاراً واسعاً للأرواحية، والتي نظمت الممارسة الدينية وحددت عناصرها وأهدافها وطقوسها. كما أثرت على تنظيم الأسرة والقبيلة، ولا بأس الآن ونحن بصدد هذا الموضوع أن نتعرف على أهم الشعوب الأرواحية التي ظلت تحتفظ بمعتقداتها الوثنية.

4. نموذج من بعض الشعوب الأرواحية:

لقد وجد الرحالة المسلمون شعوب السودان الغربي تدين بمعتقدات مختلفة، تتفرع في مجملها عن الديانة الأرواحية. وقد خلف لنا لهؤلاء نصوصاً قليلة تخبرنا عن هذه المجتمعات؛ فنجد البكري يصف لنا سكان مملكة غانة بأنهم كانوا يعبدون ثعبان كبير، وأنهم كانوا يعتقدون في استمرار الحياة بعد الموت، لذلك كانوا يزودون الملك المتوفى بما يحتاجه من طعام وخدم. أما ملك مالي فقد حطم الدكاكير "أي الصنم" عند إعلانه لإسلامه.⁴⁵

وفي نص آخر ذكر، ذكر المؤرخ عبد الرحمن السعدي في كتابه "تاريخ السودان" بأن أهالي مملكة سنغاي⁴⁶ كانوا يعبدون قبل إسلامهم، حوتاً عظيماً.⁴⁷

وإذا كانت هذه الشعوب الكبرى (غانة - مالي - سنغاي) قد اعتنقت الإسلام منذ حوالي القرن 11م، فهناك مناطق أخرى ظلت ترتبط بمعتقداتها الأرواحية القديمة مثل شعب الموسي (Mossi)،⁴⁸ والصوصو (Sosso)، و البمبارا (Bambara).⁴⁹

فلا بأس إذاً من التعرف على بعض هذه الشعوب، ولنأخذ شعب الموسي كنموذج؛ حتى يسهل علينا تفسير مسألة استمرارية بعض المظاهر الأرواحية بالسودان الغربي، وشرح أسباب معارضتها للإسلام بأراضيها. لكن الباحث في هذا الموضوع يعاني من ندرة النصوص المكتوبة، ولقد لاقى المؤرخ السوداني محمود كعت نفسه صعوبة تحديد أراضي الموسي بدقة. واكتفى بالقول بأنهم كانوا يُغيرون في عهد مملكة مالي على الجزء الغربي من ثنية نهر النيجر بقيادة موسي كي [أي ملكهم].⁵⁰

والغالب على الظن، أن قبائل الموسي قد توحدت ابتداءً من القرن 13م على الأقل، فكونت كياناً سياسياً خضع لمملكة مالي إبان قوتها، بدليل أن حاكمها كان يحمل نفس المنصب الإداري الذي حمله حُكام الولايات على العهد المالي. ولا ريب أن أيضاً قد استقلت بمجرد ضعف الماليين، وهذا ما يفسر لنا محاولة الموسي السيطرة على تنبكت؛⁵¹ لمكانتها الاستراتيجية وذلك في عام 1337م. يقول السعدي: "ثم غزا إليها [أي تنبكت] في أيام مملكة مالي سلطان الموسي في جيش عظيم، فخاف منهم أهل مالي، وهربوا وتركوا البلد لهم، فدخل فيها وأفسدها وحرقها وقتل من قتل وأكل ما فيها من الأموال، وولى إلى أرضه ثم رجع إليها أهل مالي".⁵²

وتواجهت قبائل الموسي خلال القرن 15م مع سني علي مؤسس مملكة سنغاي، وانتهت المعركة بانهزام الملك الموسي واندحار جيشه وملاحقته إلى العاصمة. يقول كعت: "وسمع سني علي بخبر سلطان موسي والمسنى كمداع، وارتحل من دياره، والتقى في كب وهزم جيشه، وتبعه إلى البنبارا، ونجا بنفسه حتى دخل في بلده في دار مملكته المسمى أرقم".⁵³ إن ما استهدفت الوصول إليه من وراء تقديم هذه الإشارات عن التاريخ السياسي لشعب الموسي، هو أن أظهر أن هذا الكيان كان قويا من الناحية العسكرية في معظم الفترات، وهذا ما يفسر لنا معارضتهم لنشر الإسلام.

أما من الناحية الدينية، فقد احتفظ شعب الموسي بعبادة الأسلاف؛ فقد كان لهم معبد خاص يقيمون فيه طقوسهم الدينية، ويستشيرون فيه أجدادهم في أمورهم الهامة، من ذلك ما ذكره مؤرخ تنبكت، عبد الرحمن السعدي عندما استقبل ملكهم "نعر" رسولا من طرف الأسكيا [أي الملك] الحاج محمد⁵⁴ (1493-1528م)، يطلب إليه الدخول في الإسلام. لكن الموسيين فضلوا التثبث بديانة أسلافهم التي اعتادوا عليها منذ قرون خلت.

يقول السعدي في هذا الصدد: " وفي السنة الرابعة من الهجرة، غزا الأسكيا الحاج محمد غزوة نعر وهو سلطان الموسي، ومشى معه السيد المبارك مور صالح جور، فأمره أن يجعلها جهادا في سبيل الله، فلم يخالفه في ذلك، فطلب أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد من السيد المذكور أن يكون رسولا بينه وبين سلطان الموسي، فقبل ووصل إليه في بلده وبلغه رسالة أسكيا الحاج محمد في الدخول في الإسلام، فقال له حتى يشاور آباءه الذين في الآخرة، فمشى إلى بيت صنم مع وزرائه ومشى هو معهم ليرى كيف يشاور الأموات، فعملوا ما يعملون من عوائدهم في صدقاتهم، فقال نعر للسيد المبارك: ارجع وقل له: ما بيننا وبينه إلا الحرب".⁵⁵

نلمس إذاً من هذا النص، إنَّ هناك اصراراً كبيراً على التثبث بالأرواحية ورفض الإسلام، لأن من شأن اعتناقه أن يفقدها وحدتها العضوية؛ مما يعني أنَّ هناك شعوب سودانية ظلت تعتنق الأرواحية بالرغم من ظهور الإسلام، وخصوصاً شعب الموسي، وهذا على عكس ممالك (غانة، ومالي، وسنغاي)، التي اعتنقت الإسلام طواعية. إذاً يمكننا القول، أنَّ شعوب السودان الغربي قد اقسمت ما بين قبائل احتفظت بديانتها الأرواحية، وأخرى اعتنقت الإسلام، وعملت على نشره والعمل بمؤسساته ونظمه.

الخاتمة

هذه إذاً هي صورة الأرواحية الإفريقية بمختلف عناصرها ومظاهرها، وهي صورة قد تتغير تفاصيلها قليلاً أو كثيراً من جماعة إلى أخرى، وحتى داخل الجماعة الواحدة نفسها. لهذا، فإنَّ أغلب الأصنام والآلهة والشعائر التي استعرضناها، إنما تهم جهة بعينها، على الأقل من خلال المصادر.

ورغم ذلك، فإنَّ الأرواحية في بلاد السودان الغربي تجمعها قواسم جوهرية مشتركة، تضيء عليها نوعاً من الانسجام على مستوى النظرة إلى الحياة والكون. وعلى الرغم من تدين الأهالي الشديد، وارتباطهم بدينهم، وملاحم العنف البادية على ممارساتهم الدينية؛ فإنَّ لتلك الديانة فلسفة سامية ظهرت جلياً في النظم السياسية والاجتماعية المحلية.

وتدعونا هذه الخلاصة إلى طرح سؤال هام - سنعمل على مناقشته في دراسة لاحقة -

وهو:

عندما اعتنق الفرد الإفريقي الإسلام، هل تخطى بشكل كُلي عن عقيدته الأرواحية هذه؟ أم أنَّه احتفظ ببعض مظاهرها؟ وما أثر هذا الاحتفاظ على مستقبل الإسلام في إفريقيا جنوبي الصحراء؟

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في الدراسة

أولاً - المصادر والمراجع العربية:

ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: محمد عبد الرحيم، (دمشق: دار الأرقم، الطبعة 1، 2009).

ابن سعيد. علي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1970).

أبو القاسم محمد بن علي. ابن حوقل، صورة الأرض، (بيروت: مكتبة دار الحياة، 1979).

أحمد بن علي المقرئ، الإمام بالإخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، (القاهرة: مطبعة التأليف، 1895).

البرتلي. ابن بنان، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق: محمد إبراهيم الكناني ومحمد حجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981).

البكري. أبو عبيد، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، تحقيق دوسلان، (باريس: ميزونوف، 1965).

السعدي. عبد الرحمن، تاريخ السودان، تحقيق: هوداس وبنوة، (باريس: ميزونوف، 1981).

- سعيد. سامي، "مساهمة في دراسة تاريخ الحياة الدينية في السودان الغربي خلال العصر الوسيط: الدين والعلم في عصر الأسكيين 1493 - 1591م"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الجامعية 1991 - 1992، (مرقونة).
- الشكري. أحمد، الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى متم القرن 18م: نموذج بلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية (الرباط: 2011).
- الفتتالي. عبد العزيز، مناهل الصفا في مآثر مولانا الشرفا، تحقيق: عبد الكريم كريم، (الرباط : منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1972).
- عيسى. عبدالله، "الإستراتيجية العسكرية للاستعمار الفرنسي في السنغال"، رسالة ماجستير غير منشورة، (المغرب: جامعة الحسن الثاني، المحمدية، 2008-2009).
- القزويني. زكريا، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت: دار صادر، د.ت).
- القلقشندي. أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، (القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985)، الجزء 5.
- كعت. محمود، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس، الطبعة الأولى، (باريس: ميزونوف، 1981).
- مارمول. كربخال، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، (الرباط: دار نشر المعرفة، 1984)، الجزء 3.
- مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1985)، حققه، سعد زغلول عبد الحميد.
- المقدسي. شمس الدين، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، (لیدن: د.ت).
- الوزان. الحسن، (المعروف بليون الإفريقي)، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، الجزء 2، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983).

ثانياً - المصادر والمراجع الأجنبية:

- Ca Da Mosto (A .De), *Relation des voyages a le cote occidentale d'Afrique*, (Paris : publié par M. Charles Schefer, 1895).
- Delafosse (M), *Haut – Sénégal – Niger : Le pays, les peuples, les langues*, (Paris : Maisonneuve et Larose, Nouvelle édition, 1972)
- Marie – France Briselance ; *Histoire de l'Afrique « collection je sais »*, J.A. Livre,(Paris : 1988), T2.

Marty (P.), *Etudes sur l'islam et les tribus maures :les Brakna*, (Paris: E. Leroux, 1921) .

Vincent (L.T.) Luneau (R.), *La terre Africaine et ses religions*, (Paris: L'Harmattan).

الهوامش:

¹ - **الأرواحية**: يُعرف بعض الباحثين الأرواحية، بأنها ديانة وضعية محلية تعني - بمفهومها العام - الإيمان بأرواح غليا كامنة في الكائنات والأماكن والأشياء. وقد أثار اصطلاح "الأرواحية" - وما زال - جدلاً بين المهتمين، بسبب مدلولاتها القدحية، المرتبطة بنظرية (F. B. Tylor) حول تطور الديانات البشرية. وهي نظرية ترى بأن البشرية مرت بثلاث مراحل متتابعة في عقديتها الدينية وهي: الأرواحية، وتعدد الآلهة، ثم الوحدانية. فظهر أن اصطلاح "الأرواحية" مبهم وغير منطقي، كما هو لفظ "بدائي" المقترن به. لذا اقترحت أسماء بديلة للديانات في إفريقيا، مثل طبيعية (naturalisme)، وشركية (polythéisme)، ووثنية (paganisme)، وديانة تقليدية (religion traditionnelle). ولكن ليس لأي من هذه التسميات المقترحة مدلولاً شاملاً عن العقيدة المعنية. لهذا ما زال استعمال مصطلح "الأرواحية" شائعاً ولا سيما بين المؤرخين، بمن فيهم الأفارقة أنفسهم، وقد تبنيها بدورنا، دون اعتبار لخلفياتها السلبية المحتملة. راجع:

-Delafosse (M), *Haut – Sénégal – Niger : Le pays, les peuples, les langues*, (Paris : Maisonneuve et Larose, Nouvelle édition,1972), p 13

2- أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، (القاهرة: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1987)، الجزء 5، ص 284.

3- Marty (P.), *Etudes sur l'islam et les tribus maures :les Brakna*, (Paris: E. Leroux, 1921) ,p. 141.

4 - أحمد بن علي المقرئزي، **الإمام بالإخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام**، (القاهرة: مطبعة التأليف، 1895)، ص2. ابن بنان البرتلي، **فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981)، ص 15.

5 - أبو عبيد، البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك، تحقيق دوسلان، (باريس: ميزونوف، 1965)، ص 176.

6 - **مملكة غانة**: تعد من الممالك الإفريقية التي كسبت الصيت والثراء بعد أن أقامت حكماً مركزياً محل القبليّة الصرفة، وأنشأت مركزاً لتجارة الذهب والملح . وتتضارب الأقوال حول تاريخ قيام هذه المملكة، إذ يذهب البعض إلى أنه القرن الثاني الميلادي والآخر القرن السابع الميلادي، ومن المرجح أنها قامت في القرن الثالث الميلادي عاش أمراؤها في مدينة كومبي في إقليم يعرف باسم واكادو أو غانة واتخذوا من الألقاب سونكي وغانة، وأطلق هذا الأخير على الدولة، وأطلقه العرب على العاصمة كومبي فسموها مدينة غانة .تكونت هذه المملكة في المنطقة الممتدة شمالي منحنى النيجر الأعلى ومنابع نهر السنغال، وامتدت أيام عظمتها (نهاية القرن 10 وبداية القرن 11م) فأصبحت حدودها تحادد الصحراء في الشمال، ونهر السنغال في الجنوب، ونهر النيجر في الشرق،

وكان امتدادها على حساب ممالك سودانية صغيرة مثل مملكة التكرور (جنوب نهر السنغال) ومملكة صوصو (على نهر النيجر). راجع: أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، (بيروت: مكتبة دار الحياة، 1979)، ص 96.

7 - **مملكة مالي**: أسست قبائل الماندينك دولتها سنة 1213 م، ودانت في أول الأمر لمملكة غانة الوثنية، لكن بعد تحرك عبد الله بن ياسين من رباطه في الصحراء سنة 1042م أسلمت هذه القبائل وبقيت تتحين الفرص للاستيلاء على مملكة غانة خاصة وأن المرابطين كالوا لها الضربات، وكذلك بعد تغلب قبائل صوصو عليها ودخلهم عاصمتها. فقامت قبائل الماندينك ضد صوصو وانتصرت عليها سنة 1235م، بقيادة زعيمهم سوند ياتاكيتا واستطاعت في سنة 1240م دخول كومبي عاصمة غانة. وقد بلغت مملكة مالي أوجها في القرن 14م فأصبحت تحاذي شمالا الصحراء حيث مصادر ملح تغازة. وامتدت جنوبا حتى أطراف السفانا عند مصادر الذهب، وغربا حتى المحيط، وشرقا حتى مناجم النحاس بتكدا، وبذلك قدر بعض المؤرخين العرب طولها بمسيرة أربعة أشهر من الغرب إلى الشرق، وعرضا بمسيرة ثلاثة أشهر من الجنوب إلى الشمال. في القرن التاسع الهجري (15م) أصاب الضعف إمبراطورية مالي، حيث تغلب عليها أهل سنغاي الذين أسسوا إمبراطوريتهم ما بين عامي (1488-1592م) التي كانت تشمل زمن حكم سني علي وغيره من أقوياء سلاطينهم، معظم السنغال الحالية ومالي والنيجر وشمال نيجيريا. راجع: القلقشندي، ص. 282.

8 - نذكر على سبيل المثال ما جاء في بعض المصنفات: فالسعدي يركز على نهر النيجر قلب السودان المطابق لمملكة سنغاي ويحدد بلاد السودان الغربي: "من أرض دند إلى حد أرض الحمديّة ومن حد أرض بندق إلى تغاز وتوات و مافي أحوازن". عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، تحقيق: هوداس وبنوة، (باريس: ميزونوف، 1981)، ص 142. وقال عنها الجغرافي الشهير المقدسي: "و أما أرض السودان فإنها تتاخم هذا الإقليم ومصر من الجنوب، وهي بلدان مقفرة واسعة شاقة". شمس الدين المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، (لیدن: د.ت)، ص 341.

9 - عبد العزيز الفتتالي، مناهل الصفا في مآثر مولانا الشرفا، تحقيق عبد الكريم كريم، (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1972)، ص117.

10 - الفتتالي، ص117.

11 - أحمد الشكري، الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى مَمّ القرن 18م: نموذج بلاد السودان، (الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية، 2011)، ص 23.

12 - علي ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، (بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1970)، ص83.

13- ابن حوقل، ص55.

14 - البكري، ص172.

15- ابن سعيد، ص91.

16 - Ca Da Mosto (A.De), **Relation des voyages a le cote occidentale d'Afrique 1455- 1457**, (Paris : publié par M. Charles Schefer, 1895) , p 162.

17 – Marie – France Briselance ; **Histoire de l'Afrique « collection je sais »**, J.A. Livre,(Paris : 1988), T2, p 177.

18 - البكري، 173. مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1985) ، ص 218.

19 - كريخال مارمول، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، (الرباط: دار نشر المعرفة، 1984)، الجزء 3، ص 243.

20 - البكري ، ص174.

21 - ابن سعيد، ص84.

22- Vincent (L.T.) Luneau (R.), **La terre Africaine et ses religions**, (Paris: L'Harmattan), P. 100.

23 - سامي سعيد، "مساهمة في دراسة تاريخ الحياة الدينية في السودان الغربي خلال العصر الوسيط: الدين والعلم في عصر الأسكيين 1493 - 1591م"، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الجامعية 1991 - 1992، (مرقونة)، ص 72.

24 - البكري، ص176.

25 - البكري، ص176.

26 - سعيد، ص 73.

27 - زكريا القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، (بيروت: دار صادر، د.ت)، ص 23.

28 - عاشت قبائل السرير ما بين نهري غامبيا والسنغال إلى الجنوب من الرأس الأخضر، بجوار التكرور.

29 - سعيد، ص76.

30 - أنظر البكري، ص176.

31 - مجهول، ص217.

32 - أنظر سعيد، ص78.

33 - عاشت هذه القبيلة في مملكة مالي.

34 - أنظر البكري، ص177.

35 - البكري، ص176.

36 - مجهول، ص214.

37 - سعيد، ص81.

38 - البكري، ص177.

39 – Ca Da Mosto, p 175.

40 – Delafosse (M), **Haut – Sénégal – Niger**, op. cit, p 39.

41– Ibidem, p 60 .

42- Ibidem, p 60 .

43 - البكري، ص 175.

44 - ابن بطوطة، تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق محمد عبد الرحيم، (دمشق: دار الأرقم، الطبعة 1، 2009)، ص 376.

45- Ca Da Mosto, p167.

46 - مملكة سنغاي: تأسست هذه المملكة في القرن السابع الميلادي من قبل قبائل سنغاي المقيمة على وادي النيجر بين بوريم وساي، دخلها الإسلام في القرن الحادي عشر الميلادي على يد المرابطين على المرجح ، ولقب أمراؤها بـ "زا" حتى سنة 1335م ثم بـ "سني". وكانت عاصمتهم كوكيا على نهر النيجر الأدنى ثم انتقلت إلى كاغ وقد حكمت مملكة سنغاي عائلة ضياء التي يظن أنها من منطقة طرابلس حتى سنة 1335م حيث أعقبتها أسرة سني. وعرفت هذه المملكة ذروة مجدها وتوسعها في عهد أسرة الأسكيا التي امتدت حدودها إلى المغرب الأقصى تقريبا، وشملت مناجم الملح في تغازة وكانت أراضيها شرقا تشمل بلاد الحوسا وتتصل باراضي سلطنة برنو. سقطت هذه المملكة نتيجة هذا الصراع بعد الحملات التي وجهها أحمد المنصور السعدي أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وذلك في إطار الرغبة في الاستيلاء على مصادر ثروة المنطقة والذي كان منذ القديم مصدر تراحم بين قبائل ودول المنطقة. راجع: محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس ، (باريس: ميزونوف، 1981)، ص 3. 43

47 - السعدي، ص 4.

48 - الموسي: تكتب بالمصادر السودانية بهذا الشكل: موش. والموسي هي قبائل أتت من الشرق حسب بعض الروايات الشفوية، استقرت في البداية على الضفة اليسرى من نهر النيجر. راجع: كعت، 154.

49 - البمبارا: هي إثنية وثنية سوداء، تقطن ببلاد كارتا (Karta) في شمال شرق نهر السنغال. راجع: عبدالله عيسى، "الاستراتيجية العسكرية للاستعمار الفرنسي في السنغال"، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة الحسن الثاني (الدار البيضاء - المغرب)، العام الدراسي 2008-2009 هامش صفحة 29

50 - كعت، ص 154.

51 - تنبكت: تأسست على نهر النيجر الأعلى، كان لها دور كبير في الحركة الثقافية والتجارية في المنطقة. تأسست في القرن 5هـ/ 11م على أيدي الطوارق، وأصبحت تنبكت في القرن 10هـ/ 16م منارا للعلوم والثقافة الإسلامية في إفريقيا. راجع: السعدي، ص 21.

52 - السعدي، ص 8.

53 - كعت، ص 45.

54 - الأسكيا الحاج محمد (899-935هـ/ 1493-1528م): هو أول ملوك آل أسكيا ومؤسس حكم دولتهم، تولى السلطة سنة 899هـ/ 1493م، بعد الإطاحة بسني بارو، آخر ملوك أسرة سني، أشار المؤرخ محمود كعت إلى أن هذا السلطان كان جليل القدر بين أهله، كما كانت له من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين ما لا يحصى، ولا يوجد له مثل لا من قبل ولا من بعد. أجمعت أغلب المصادر على حنكته وقدرته على إقامة تنظيمات إدارية جيدة، إلى أن أصيب بالعمى وعزله ابنه أسكيا موسى، وتولى الحكم محله، وبعد

الإطاحة به دخلت مملكة سنغاي منعطفاً جديداً، تميزت بالصراع المرير بين الأمراء حول الحكم، لهذا انتشرت في صفوفهم الحرب والفتن، وهو ما أدى إلى انهيار كل ما بناه هذا السلطان. راجع: كعت، ص59.

55 - السعدي، ص74.